

# حسيبك للزمن

رسالة نصيية على هاتفي أيقظتني من سباتي العميق أمس صباحًا. كنت متأكدًا أنها إحدى الرسائل الصباحية التي يُرسلها صديقي هيثم حاملة دعاء الصباح اليومي الذي اعتدت عليه كل يوم صباحًا. "إخوتي الأعزّاء، لقد مرّت ستة عشر عامًا على وفاة والدنا" كان هذا نصّ الرسالة التي قام أخي بإرسالها صباحًا على مجموعة الأخوة.

هل هذا معقول؟! لا أكاد أصدّق أنّه قد مرّ كل هذا الوقت وبهذه السرعة. أُصبت بالهلع. أصبحت أخاف مرور الوقت والسنين بسرعة البرق. لم أشعر أصلًا أنّ والدي قد مات فهو حاضر معي في كل لحظة من لحظات حياتي، فأبي لم يمّت، ولكن الزّمان هو الذي مات ويموت يوميًا وتموت أيامنا معه، يا للهول!

إننا ننظر إلى كل ما يمنح حياتنا عمقًا ومعنى، ونراه يُمحي ويختفي. من أشدّ المراحل تعبًا، المرحلة التي تكتشف فيها بأنك وحيد أكثر من أيّ وقت مضى، وأنك بكلّ حزنك لا تعني للعالم شيئًا.

أعترف أنني بدأت أخاف من مرور الوقت. ما أكاد أنسى أو أتناسى حتّى يذكّرني "الفيسبوك" بأحداث حصلت في الماضي وذكريات قديمة ذاكرًا أنّها كانت قبل عشرة أعوام! معقول؟ بهذه السرعة؟! "الوقت لا منطق له، نقضي حياتنا في اللّحاق به. وحين نتعب ونكفّ عن مطاردته، يأتينا بأمنيّاتنا القديمة لاهثة، بعد أن نكون قد تغيّرنا وتغيّرت هي بمرور الزّمن". هذا ما تقوله الكاتبة أحلام مستغانمي عن الزّمن. لا أستغرب ذلك فقد تزوّجت أربع مرّات ولديها الكثير من الذّكريات.

نحاول بكلّ قوانا أن نحارب الزّمن وأن نحارب آثاره بشقّى الوسائل، نحشى أن نهرم ونشيخ وأن نخور قوانا. نحاف من ظهور التّجاعيد على وجوهنا وعلى جبيننا، نحاول نحن الرّجال محاربتها بممارسة الرياضة بالعقاقير والفيتامينات المختلفة، وتحاول النساء محاربتها بوسائل أخرى مختلفة.

كنا في الأسبوع الماضي في زيارة لأصدقاء لنا لم نرهم منذ فترة. وجدت نفسي أقول بصراحتي التي ستجني عليّ يومًا ما، للسيدة: "لقد تغيّر شيئًا بوجهك، يبدو وجهك أكثر وهاجًا وصغيرًا". ما إن قلتها

حتى شعرت بكوع ذراع زوجتي ينغرس عميقاً في جانبي الأيمن. عرفت أنني قد قلت شيئاً لم يتوجب عليّ قوله. غيرت زوجتي الموضوع فوراً. عند عودتنا سألتُ زوجتي لماذا قامت "بضربي" هكذا، فقالت: "يا غشيم ألم تلاحظ أنّها قد عملت "فيلر" لنفخ الخدود؟!"

"حقاً؟! لا لم ألاحظ ذلك" قلت بسداجتي المعهودة "اسمه فيلر؟! اسم جميل" قلت مازحاً. "استغرب منك كيف لا تلاحظ، نحن النساء نلاحظ كلّ شيء، مثلاً سميرة عملت "بوتكس" لشدّ التجاعيد وأسماء عملت خيوط كولاجين، وبهيّة عملت شد وتقويم للأنف وووو... ولمعرفتك، بدأ قسم من الرجال يقوم بذلك أيضاً."

أوقفوا قطار الزمن إليّ أريد النزول. لقد نسينا أنفسنا، بدأت أشعر أنّ حياتنا ذهبت سُدى، ليتنا نستطيع أن نمحو كلّ ما تعلّمناه وكلّ ما رأيناه وسمعناه وأن نبدأ من جديد. لقد قضينا حياتنا بين فترة وأخرى، انتظرنا أن تنتهي الفترة كذا والفترة كذا، وأن تنتهي فترة الدّراسة، وفترة العمل وفترة العزويّة الخ... وجدنا أنّ حياتنا صارت مجموعة من الفترات ننتظر انتهاءها لنكتشف أننا قد بلغنا نهاية العمر دون أن نعيش حياتنا وننعم بها.

لا، لا تفهموني خطأً، لن نستسلم، مهما كبرنا سيظل بداخلنا طاقة طفل تجعلنا ننظر للتفاصيل الصّغيرة بعين الدّهشة مثل: الحماس بعد شراء الأشياء الجديدة أو الامتناع عن التّوم ترقّباً لحدث منظر في الغد! أملي دومًا ألا نفقد وهج هذه الطّاقة والرّوح أمام الحياة، حتّى لا تتساوى الأمور جميعها في أعيننا. هل يمكننا أن نهي حديثنا بدون "فشّة غلّ:"

"عند عودتي من العمل في ساعات ما بعد الظّهر المزدحمة والمكتنّظة بأزمات المرور، حاول أحد الشّباب بسيارته المزركشة أن "يدحش" حاله أمامي بالقوّة، إلّا أنني لم أمكّنه من ذلك، ففتح نافذة سيارته مهدّدًا متوعّدًا باللغة العبريّة. أجبته باللغة العربيّة قائلاً "عيب عليك"، فبادرني بقوله: "والله يا حاج إنّك محظوظ إنك عربي ورجل كبير وإلّا..."

تردّدت كلماته بأذني "حاج"، "رجل كبير". أصابني كلماته بالفزع. تنازلت "مكره أخاك لا بطل" وأعطيته المجال ليتخطاني.

ما هي إلا دقائق معدودة وإذا به قد أوقفته سيّارة شرطة لتحرير مخالفة له. نسيت كلماته، نسيت  
"الحاج" ونسيت وقار "الرّجل الكبير" وفتحت نافذة سيّارتي وناديتّه قائلاً: "بدك مساعدة يا حاج؟! لم  
أنتظر ردّه، فقد غلبني شعوري بالفرح ونشوة الانتصار، وعدت أبتسم كأنني طفل صغير.

دمتم بسعادة وفرح

أ.أيمن جبارة